قراءة في تجربة الغذامي النقدية

سهام خينوش. - أ.د جمال مجناح
جامعة محمد بوضياف *المسيلة – الجزائر-

ملخص :

عبد الله الغذامي من أشهر النقاد، له آراء نقدية أحدثت ردود فعل متناقضة عبر الشارع الثقافي العربي، ما إن تقف على تجربته النقدية، إلا وتجد نفسك أمام مرحلتين: مرحلة بدأت مع بزوغ كتابه الأول "الخطيئة والتكفير"، وهي مرحلة النقد الأدبي، وفيها يظهر تأثر الغذامي بالمناهج النقدية الغربية حاول بلورتها ليصل إلى منهج تكاملي الذي هو خليط من المنهج البنيوي والسيميولوجي والتفكيكي، وفي الأخير طبق كل ما توصل إليه على نصوص حمزة شحاتة.

وفي المرحلة الثانية طرح عبد الله الغذامي بعد ذلك نقدا بديلا عن النقد الأدبي، الذي أعلن الغذامي عن موته وأنه شاخ، مثلما يشيخ الإنسان، لأنه فشل في كشف عيوب النصوص الأدبية، وأقنعة المؤسسات الثقافية والاجتماعية، ليقترح نقدا جديدا، هو النقد الثقافي، بأدواته ومناهجه وقضاياه، فهو النقد الذي يمكنه الكشف عن الأنساق المضمرة في أي خطاب ثقافي، ليحمّل الشعراء

Le résumé

Abdallah Elghadhmi est l`un des plus connus critiques modernes, ses études analytiques ont fait beaucoup et différent réactions dans le monde culturel arabe.

Son expérience dans la critique a connu deux phases importantes, la première est celle de la «critique littéraire» qui est apparue avec la publication de son premier ouvrage «La fante et le repentir» ou il a fondé sa propre méthode dans la critique en puisant de différentes écoles occidentales le structuralisme, le sémiologique et le desconstructionalisme c`est ce qu`on appelle le fonctionnalisme, il affait appel a la décontraction et la construction par la suite, Finalement, Elghadhami a appliqué ses théories dans la critique sur les textes de Hamza Chahtta

Abdellah Elghadami a propose une nouvelle critique à la place de l`ancienne critique

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والشعر المسؤولية في تشعرن الذات وتبني مصطلح الفحل الذي كان العامل الأساسي في ظهور الكذب والأنانية وحب الذات في المجتمع.

تمهيد

تشهد الساحة النقدية العربية توافد عدد كبير من المناهج الغربية الحديثة، مناهج تعددت بتعدد منطلقاتها ومفاهيمها فجوبهت بالعداء من البعض، لأنها السبب في زعزعة الثوابت النقدية التي كنا نستند إليها، والبعض آمن بهذه المناهج النقدية، وراح يعتمدها في تحليل النصوص الشعرية والنقدية، لكن قليلاً منهم من أخلص لها تمام الإخلاص، وذلك بسبب صعوبة استيعاب مبادئها ومصطلحاتها واختلاطها بغيرها من المناهج، أو بسبب عدم اكتمال منهج معين مما جعل البعض يمازج بين عدة مناهج، ومنهم الناقد السعودي عبد الله الغذامي.

هذا الناقد الذي عرفت حياته النقدية تقلبًا بين مختلف المناهج، فغذامي 1985م غير غذامي 2000م، فقد تطور الرجل واتسعت آفاقه وتفاعل مع العهد الجديد، لذلك حاولت أن أرصد مختلف التجارب التي عرج إليها الغذامي، الذي بدأ بنيويًا وسيميائيًا وانتهى تفكيكيًا منذ عام 1985م، وطبق هذه المناهج في مختلف النصوص، بل راح يبحث لها عن جذورها في دفات كتب التراث، إلا أن الغذامي بدأ يعرف نوعًا جديدًا من النقد وهو النقد الثقافي، فقد غادر الرسمي وتلبس بلباس الثقافة الشعبية، وكل ما هو مهمش.

أثناء وقوفي على تجربة الغذامي حاولت الإجابة عن بعض الأسئلة:

- كيف تعامل الغذامي مع هذا الزخم الهائل من المناهج النقدية الحديثة؟
- لماذا دعا الغذامي إلى موت النقد الأدبي؟
- هل وجد ضالته في النقد الثقافي؟
- كيف وظف الغذامي المرأة في خطابه؟

إن محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها شجعتني للخوض في هذا الموضوع للأسباب التالية: شغفي الشديد بالنقد الأدبي قديمه وحديثه، فهو من المواضيع الثرية التي تسمح للباحث فيه والمتوغل في شعابه، أن يلم بجملة من القضايا، هذا بالإضافة إلى إطلاعي على كتاب "الخطيئة والتكفير"؛ فأردت أن أغوص في كتبه النقدية لأعرف ما تشتمل عليه من أفكار.

بعد الإبحار في عالم الكتب، سواء المتعلقة بالنقد القديم أو الحديث، انتهيت إلى أن أهمية هذه الدراسة تكمن في:

1- التطرق إلى أصعب المناهج النقدية كالبنيوية، والتفكيكية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2- الحديث عن علاقة الغذامي بقضية المرأة.

للوصول إلى حل لهذه الإشكاليات، حرصت أن أكون وفية للمنهج التاريخي والاستنباطي، وكان رائدي في عملي هو قراءة مؤلفات الغذامي النقدية قراءة مفصلة، لأنها المنطلق العملي الصحيح، واعتمدت بعض المراجع، منها:"الغذامي الناقد قراءة في مشروع الغذامي" لعبد الرحمن إسماعيل السماعيل، وكتاب "الغذامي والممارسة النقدية والثقافية" لحسين السماهيجي". وتحقيقًا للأهداف المرجوة من الدراسة، ارتأيت أن أقسم دراستي إلى فصلين:

1- الفصل الأول: التجربة النقدية الأدبية.

2- الفصل الثاني: التجربة النقدية الثقافية.

مرفقة بكل فصل: جانبًا نظريًا، وآخر تطبيقيًا؛ لأختم الدراسة بخاتمة لخصت فيها كل ما توصلت إليه وأجبت فيها عن الأسئلة.

1. التجربة النقدية الأدبية:

ظهر عبد الله الغذامي في مجال الأدب في مرحلة التمخضات الكبرى، التي عرفها النقد العربي، مرحلة الثمانينيات من القرن العشرين، "فقد كانت تلك الفترة بداية انحسار كثير من الظواهر الفكرية والأدبية، وبداية ظهور أخرى جديدة [1] ، فبرزت البنيوية والسيميولوجية والتفكيكية، كمناهج نقدية حديثة لا تهتم بالمرجعيات الخارجية للنص، بل تعمل داخل النص.

أفصح الغذامي عن انبهاره بالمناهج النقدية الغربية، بقوله:«ولذلك احترت أمام نفسي وأمام موضوعي ورحت أبحث عن أنموذج استظل بظله....كي لا أجتر أعشاب الأمس فوجدت منهجي ووجدت نفسي»[2] ، هكذا وجد الغذامي نفسه أمام المناهج العلمية فأخلص الوفاء للمنهج الأم – التشريحية– الذي سار عليه من كتابه «الخطيئة والتكفير» إلى «المشاكلة والاختلاف» ذلك المنهج الذي كان مزيجًا بين البنيوية والسيميولوجية والتشريحية.

وكأنه كما يقول محمد عزام:«يريد أن يصوغ لنفسه منهجًا جامعًا لهذه الثلاثة، أو لعله لم يميز بينها كمناهج نقدية مستقلة عن بعضها، في ذلك الوقت المبكر من مثاقفته وتلقيه لها، حيث كانت الحدود بينها غائمة، ولم تكن مستقلة عن بعضها بعضًا، وإنما كانت تبدو للناظر إليها من بعيد حداثية»[3].

كتب الغذامي ما يشبه الاعتراف بقصور آليات النقد الجديد، وفي مقدمة ذلك البنيوية، حيث يقول:«في الواقع أني لست بنيويًا، أنا استخدم البنيوية، ولكني من حيث التصنيف العلمي أنا ناقد ألسني الشيء الوحيد الذي أنا ملتزم به هو مبدأ النقد الألسني، أنا أستخدم البنيوية في أوقات

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

معينة واستخدامي لها هو استخدام انتقائي، أنا أستخدم بعض أدواتها وأرفض أدوات أخرى، مثل ما أني أستخدم بعض أدوات السيميولوجيا وبعض أدوات التشريحية، وبعض أدوات الأسلوبية»[4]

اعتمد الغذامي على جملة من المفاهيم في عرضه لمشروعه النقدي الأدبي: الصوتيم، العلاقة، الإشارة الحرة، الأثر، تداخل النصوص...وغيرها.

أ. الصوتيم

انتقل مصطلح الصوتيم من حقل اللسانيات إلى الفكر البنيوي، فلم يعد مجرد فونيم أو حرف بل أصبح عقدة دلالية وجمالية، تختبئ داخل النص، استعمله الناقد عبد الله الغذامي كأصغر بنية لا يمكن كسرها إلى ما هو أصغر منها داخل بنية النص الكبرى، فيربط بينه بوصفها بنية في جسد النص الحي وبين المضغة في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

رأى الغذامي أن الصوتيم في الشعر العمودي الرومانسي، يكون في المطالع الشعرية الخلابة، كما قد يأتي في الخاتمة، في حين في الشعر الحديث يمثل الصوتيم القوة ذات السيادة داخل النص.

ب.العلاقات

إن قيمة الشيء ليست في جوهره ولكنها في وظيفته، من هذه القاعدة تأسس مبدأ العلاقات، فقيمة الصوت أو الكلمة أو الوحدة ليست في ذاتها، ولكن فيما تؤديه من وظيفة تنشئها العلاقة فيما بينها وبين سواها من الأصوات والكلمات، أو من علاقتها مع محيطها.

ت.الأشارة الحرة

"الكلمة هي صورة صوتية، وتصور ذهني: دال ومدلول، فكل كلمة تنطق تحمل هذين القطبين معها: قطب الصوت، وقطب الدلالة، يختلف تركيز المتكلم عل هذين القطبين حسب غرضه من المقولة، ففي الخطاب النفعي يتوجه الاهتمام نحو المدلول، وهو ما يسعى المتحدث إلى غرسه في ذهن المتلقي ليشتركا معا في تصور ذهني واحد، أما الغرض الجمالي للمقولة، ينحرف التركيز عن التصور الذهني المشترك، بل يسعى إلى تقوية القطب الصوتي وتكثيفه، فيحرر الكلمة من قيد التصور الذهني"،[5] ويصبح الدال إشارة حرة تعوم سابحة لتغري المدلولات إليها لتنبثق معها، وتصبح جميعا دوالا أخر ثانوية متضاعفة، لتجلب إليها مدلولات مركبة.

ث.الأثر

أعطى مفهوم الأثر للصوتيم والعلاقة، والإشارة الحرة، قيمة مبدئية بأن جعلها ذات جدوى.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رأى الغذامي أن الأثر يمثل سحر البيان، فهو القيمة الجمالية التي تجري وراءها كل النصوص ويتصيدها كل قراء الأدب، فالنص لا يكتب إلا من أجل الأثر، إذ لا أحد يكتب شعرا لينقل إلينا أقوال الصحف وإنما يكتب الشعر طلبا لإحداث الأثر.

ج.التناص

فضل الغذامي تسمية "تداخل النصوص"، على مصطلح التناص، وهو اصطلاح يحمل معان وثيقة الخصوصية، تختلف من ناقد إلى آخر، رأى الغذامي أن العمل الأدبي يدخل في شجرة نسب عريقة وممتدة تماما مثل الكائن البشري، فهو لم يأت من فراغ كما أنه لا يفضي إلى فراغ، إنه إنتاج أدبي لغوي لكل ما سبقه من موروث أدبي، وهو بذرة خصبة تؤول إلى نصوص تنتج عنه، ومن طبع النص الأدبي أن يكون مخصبا ومنتجا تماما مثل كل كائن حي مثل الإنسان والشجرة.

كتاب "الخطيئة والتكفير"

كتاب "الخطيئة والتكفير " يعد ثمرة مشروعه النقدي الأدبي، "الذي ألح فيه إلحاحًا شديدًا على النظر النقدي القائم على دراسة النص وإقصاء النواحي الأخرى التي كانت إلى حين موضع اهتمام الناقد الأدبي"[6]، فتوج الغذامي على إثر هذا الكتاب بجائزة مكتب التربية العربي لدول الخليج العربي في العلوم الإنسانية عام 1985م، فانكبت عليه الدراسات النقدية التي بلغ عددها مائة وثلاثين دراسة.

لم يمر صدور كتاب "الخطيئة والتكفير" على الساحة النقدية مرور الكرام، بل صاحبته ضجة كبيرة طالت الكتاب ومنهجه، ورؤيته النقدية بدءًا من عنوانه المثير غير المألوف في بيئة ثقافية واجتماعية، كانت تود أن تسمي الكتاب بـ"الذنب والتوبة"، إلا أن بعض النقاد تلقوا الكتاب كأعلى نموذج تطبيقي في النقد الحديث.

كتاب "الخطيئة والتكفير" من الكتب القليلة التي لا يصح أن تقرأ من عنوانها، إذ لا علاقة للكتاب بما قام بالأمس، وما يقوم اليوم في الوطن العربي من دعاوي التخطئة والتكفير بمعناهما العام، وإنما هو كتاب نقد أدبي يسعى إلى إحلال البنيوية التشريحية في دراسة النص الأدبي، من منظور يجمع بين التأصيل والتحديث. ومفردتا الخطيئة والتكفير اللتان استخدمهما المؤلف عنوانا لكتابه قد جاءتا في سياق آخر مختلف، وضمن أنموذج افتراضي دلالي يجسد العلاقة الخاطئة بين رجل وامرأة، يتحول فيما بعد إلى إحساس بالخطيئة ثم محاولة للتكفير عنها، وهو أنموذج يوجز الثنائية المتعارضة التي صنعت نصوص أدب حمزة شحاتة.[7]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قسم الغذامي كتابه إلى قسمين: قسم نظري وقسم تطبيقي؛ في القسم الأول تطرق إلى المذاهب الألسنية، وعرض فيه أحدث التطورات النظرية في هذا التخصص مثل: البنيوية والسيميولوجية والتفكيكية، كما نلمس في الكتاب دعوة صريحة إلى القطيعة مع النقد السائد آنذاك، وتركيز الجهود على الوظيفة الشاعرية للغة الكفيلة بتمييز جيد النصوص من رديئها، كما تحدث عن دور النقد التشريحي في نقل الخطاب النقدي من كونه مجرد تعليق على ما حدث، إلى فعالية عقلية تحول المسلمات إلى إشكاليات.

أما القسم الثاني فنلاحظ الوقفات المطولة مع نصوص حمزة شحاتة، ما يرفع بها عن منطق الإعجاب ويصل إلى درجة الحب، فقد انعكست على ذاته، وخرجت من كونها نصوصًا قرائية إلى كونها نصوصًا كتابية، تحتاج في مجال الحديث عن النص القرائي والنص الكتابي إلى عاشق لا يتورع عن اختطاف محبوبته.

أجرى الغذامي دراسة على آثار حمزة شحاتة موظفًا في تحليله المفهومات النظرية السابقة، على ضوء منهجية: البنيوي، والتشريحي معًا، من أجل سبر كوامن النص، لتأسيس الحقيقة الأدبية للبناء الأدبي، فأجرى مبضع النقد في جسد النص، في عملية مزدوجة تبدأ بتفكيك النص، ثم إعادة تركيبه، بغية الوصول إلى كل، عبر خطوات منهجية مجددة: منطلقًا من قراءة عامة لكل الأعمال، إلى قراءة تذوقية ونقدية، لينتهي إلى إعادة البناء المتمثلة في الكتابة.

كانت قصة آدم وحواء منطلق حديث الغذامي، فحواء تمثل اللحظة الحساسة في تاريخ البشر منذ تواجه معها آدم على مشهد التفاحة، "وهي تقدمها له ليأكل منها، وهو يضعف أمامها ناسيًا تحذير الله عز وجل له من الفاكهة المحرمة، وأخيرا ينسى نفسه فيأكل الحرام ويأثم، وعندئذ يحكم الله عز وجل عليهما بالهبوط إلى المنفى (الأرض)، ويغادر آدم فردوسه مخطئًا آثمًا على ما بدر منه، ولكنه يهبط بوعد من الله بالعودة إلى الفردوس". (8)

ألقى الغذامي اللوم على حواء لأنها صاحبة الإغراء لكن لم يقدم دليلاً على ذلك، فالحقيقة أن الأديان الثلاثة الإسلام، والمسيحية، واليهودية تتفق على أن الله عز وجل خلق الرجل والمرأة، وهو خالق الكون بأكمله، ولكن يبدأ التعارض بين الأديان بعد خلق أول رجل (آدم) وأول امرأة (حواء). "ففي العقيدة اليهودية والمسيحية حرم الله عز وجل على آدم وحواء أكل الفاكهة من الشجرة المحرمة، ولكن الحية وسوست لحواء أن تأكل من الشجرة وحواء وسوست لآدم أن يأكل معها، وعندما لام الله عز وجل آدم على ما فعله ألقى آدم كل الذنب على حواء: فقال آدم إنها المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت".(9)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما بالنسبة للإسلام فعلى عكس الأديان السابقة جعل الذنب ذنب آدم وحواء معًا، ولا يوجد أي جزء في القرآن يؤكد أن حواء هي التي دفعت آدم ليأكل من الشجرة، فكل من آدم وحواء ارتكبا المعصية، وسألا الله المغفرة، وقد غفر الله لهما. أسقط الغذامي قصة آدم على نصوص حمزة شحاته، باعتبار أن المرأة هي أقوى الأضواء إشعاعًا في نصوصه، فهي رحمة وفي الوقت نفسه عذاب، وهي محنة وفي الوقت نفسه حقد، وهي وفاء وفي الوقت نفسه خيانة، أما الرجل فيقف مواجهًا بين الإقبال والإدبار؛ هذه هي صورة (المرأةالرجل) في أدب حمزة شحاتة.

2.التجربة النقدية الثقافية

ألف الغذامي مع **عبد النبي اصطيف** كتابًا بعنوان: "**نقد ثقافي أم نقد أدبي**" الذي نشر عام ألفين وأربعة **(2004م)**؛ ليحاول به إضافة ميتة أخرى إلى قائمة الميتات التي أبرزها "موت المؤلف"، ليتحول إلى موت النقد الأدبي.

عدّ الغذامي أن أي علم متى تشبع تشبعًا يبلغه حد النضج التام، فإنه يصبح مهددًا ببلوغ سنه التقاعدي، يقول:«ولا شك أن العلوم تتقاعد مثلما يتقاعد البشر»، ليستقي مثاله من البلاغة العربية القديمة التي نضجت حتى احترقت، فعلوم البلاغة القديمة لم تعد صالحة–كما يرى– لأي تصور أو تذوق نقدي، وبناء على هذا الأساس لم يعد النقد الأدبي صالحًا لمواكبة متطلبات المتغير المعرفي والثقافي الضخم؛ لذا يجب أن يلغى هذا النقد، وأن يحل النقد الثقافي محله.(10)

رد عبد النبي اصطيف على الغذامي بأن الذين أفتنوا بما حققه النقد الثقافي في الغرب، فرأوا فيه الحل السحري لجميع مشكلات النقد الأدبي العربي الحديث، هم غافلون عن أن هذا النقد الثقافي على أهمية ما حققه من إنجازات، لم يلغ دور النقد الأدبي في المجتمعات الغربية التي ازدهر فيها، بل إن النقد الأدبي قد شهد في هذه المجتمعات ازدهارًا مماثلاً.(11)

أ. تعريف النقد الثقافي

عرّف الغذّامي النقد الثقافي بأنه: "فرع من فروع النقد النصوصي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول الألسنية معنيّ بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، وما هو غير رسمي وغير مؤسساتي وما هو كذلك سواء بسواء. ومن حيث دور كل منها في حساب المستهلك الثقافي الجمعي. وهو لذا معني بكشف لا الجمالي كما شأن النقد الأدبي، وإنما همه كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي الجمالي، فكما أن لدينا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نظريات في الجماليات فإن المطلوب إيجاد نظريات في القبحيات لا بمعنى عن جماليات القبح، مما هو إعادة صياغة وإعادة تكريس للمعهود البلاغي في تدشين الجمالي وتعزيزه، وإنما المقصود بنظرية القبحيات هو كشف حركة الأنساق وفعلها المضاد للوعي وللحس النقدي".[12]

وإذا كان الغذّامي يرى أنّ مجال النقد الثقافي هو النص، فإن النص عنده تجاوز المفهوم التقليدي، وعده مادة خامة، لاستكشاف أنماط معينة من الأنظمة السردية والإشكاليات الأيديولوجية وأنساق التمثيل، فالنص ليس هو الغاية القصوى للدراسات الثقافية، وإنما غايته المبدئية الأنظمة الذاتية في فعلها الاجتماعي في أي تموضع كان، لا يقتصر الأمر على قراءة النص في ظل خلفيته التاريخية ذات الأنماط المصطلح عليها، فالنص والتاريخ منسوجان ومدمجان معًا كجزء من عملية واحدة.[13]

ب.منهجه وأدواته

لم يلغ الغذامي أدوات النقد الأدبي، وإنما أضاف وغير عناصر وأدوات جديدة، يقول:"إن النقد الثقافي لن يكون إلغاءً منهجيًا للنقد الأدبي، بل إنه سيعتمد اعتمادًا جوهريًا على المنجز المنهجي الإجرائي للنقد الأدبي"، وحتى يقوم الغذامي بنقل العملية من بُعْدِها الأدبي إلى البعد الثقافي احتاج إلى نقلة في الأداة وتحرير مصطلح، عبر عمليات إجرائية حددها الغذامي على النحو التالي:

1- نقلة في المصطلح النقدي ذاته.
2- نقلة في المفهوم (أو النسق).
1- نقلة في الوظيفة.
2- نقلة في التطبيق.[14]

1.نقلة في المصطلح النقدي ذاته

يقتضي إجراء نقلة في المصطلح ذاته نوعًا من الزحزحة، بحيث يتأهل مصطلح النقد ليكون قادرًا على استيعاب المهمة الثقافية التي سيقوم بها، ويلزم ذلك إعادة ترتيب عناصر العملية الأدبية، وتجديدها إذا اقتضى الأمر، وهنا يقترح الغذامي أن يشمل ذلك:

أ- عناصر الرسالة الأدبية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ب-المجاز.

ت-التورية الثقافية.

ث-نوع الدلالة.

ج- الجملة النوعية.

د- المؤلف المزدوج.[15]

أ.عناصر الرسالة الأدبية

بعد أن حدد **جاكبسون** (Roman Jackobson) ستة عناصر للنموذج اللغوي، وأرفق لكل عنصر وظيفة:

المرسل	←	الوظيفة الذاتية
المرسل إليه	←	الوظيفة الإخبارية
الرسالة	←	الوظيفة الشاعرية
السياق	←	الوظيفة المرجعية
الشفرة	←	الوظيفة المعجمية
أداة الاتصال	←	الوظيفة التنبيهية [16]

يقترح الغذامي إضافة عنصر سابع إلى العناصر الستة ، وهو"العنصر النسقي". وإضافته من شأنها أن تكسب اللغة وظيفة سابعة.

العنصر النسقي ← الوظيفة النسقية

والتي تمكننا من توجيه نظرنا نحو الأبعاد النسقية التي تتحكم بنا وبخطاباتنا، مع الإبقاء على ما ألفنا وجوده، وتعودنا على توقعه في النصوص من قيم جمالية وقيم دلالية، وما هو مفترض فيها من أبعاد تاريخية وذاتية واجتماعية.[17]

ب.المجاز

لقد نقل الغذامي مفهوم المجاز ومجاله من حال الاهتمام باللفظة المفردة، وأحيانًا الجملة إلى الخطاب؛ الذي هو نسيج متركب من مواقف ورؤى متكاملة، ونلخص هذه النقلة في النقاط التالية:

1- المجاز قيمة ثقافية وليس قيمة بلاغية جمالية.

2- المجاز مولد ثقافي يخضع لشروط الأنساق الثقافية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المفهوم الثقافي للمجاز يتجاوز المفهوم البلاغي الذي يدور حول الاستعمال المفرد للفظة المفردة أو الجملة؛ ليكون أكثر وعيًا بالفعل النسقي وتعقيداته.

1- تقوم نظرية المجاز على الازدواج الدلالي الذي تسميه البلاغة الحقيقة والمجاز.
2- المجاز أساس مبدئي في الفعل النصوصي.
3- في النقد الثقافي الازدواج يحدث على مستوى كلي، وليس على مستوى المفردة أو الجملة فحسب.[18]

ت.التورية

التورية أحد المصطلحات البلاغية التي تتشكل جمالياتها أو تنبثق من كونها منتجة لمفارقة لفظية تلغي معنى ظاهرًا للقول وتحل محله معنى تأويليًا.[19]

وسع الغذامي من التورية لتدل على حال الخطاب، وما يضمره في اللاشعور، وفيما هو ليس في وعي المؤلف، ولا في وعي القارئ. لأنه مضمر نسقي ثقافي، لم يكتبه فرد، ولكنه وجد عبر عمليات من التراكم والتواتر حتى صار عنصرًا نسقيًا.[20]

ث.نوع الدلالة

فصل الغذامي في كتابه "**الخطيئة والتكفير**" عن الدلالة بنمطيها "الدلالة الصريحة" و"الدلالة الضمنية" وحضورهما في النص الأدبي، فالصريحة تمثل المعنى الذي تنتجه كلمات النص وجمله، والذي يقوم على اتحاد التركيب النحوي والدلالي للكلمات، وهو معنى يمكن لأي إنسان يعرف اللغة التي كتب بها أن يدركه.[21]

أما الضمنية فإنها غالبًا ما تستعصي على القارئ العادي، وتحتاج إلى قارئ ذواق، خبير بأسرار اللغة وخباياها لكي يدركها، لأنها ليست مجرد علاقات تركيب نحوي ودلالي معجمي للقول. إنها فعالية فنية في اللغة، وبحاجة إلى فعالية قرائية تتجاوز مجرد شرح القول.[22]

وإذا ما كانت الدلالة الصريحة مرتبطة بالشرط النحوي، ووظيفتها نفعية/ توصيلية، بينما الدلالة الضمنية ترتبط بالوظيفة الجمالية للغة، فإن الدلالة النسقية ترتبط في علاقات متشابكة مع الزمن، لتكون عنصرًا ثقافيًا أخذ بالتشكل التدريجي إلى أن أصبح عنصرًا فاعلاً، تمكن من التغلغل، وظل كامنا في أعماق الخطابات، وظل ما بين اللغة والذهن البشري، فاعلاً أفعاله من دون رقيب، لانشغال النقد بالجمال أولاً، ثم لقدرة العناصر النسقية على الكمون والتخفي.[23]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ج.الجملة النوعية

لم يعد النص هو الغاية القصوى للدراسات الثقافية، وإنما غايتها المبدئية هي الأنظمة الذاتية في فعلها الاجتماعي في أي تموضع كان،[24] هذا ما أدى إلى تغير في الدلالة، الذي لا يمكن أن يكون حاضرا، إلى تغير المفهوم التقليدي للجملة، ذلك المفهوم الذي يذهب إلى أن الجملة على نوعين:

1- الجملة النحوية ⟵ مرتبطة بالدلالة الصريحة.

2- الجملة الأدبية ⟵ ذات القيم البلاغية والجمالية المعروفة.

في حين تبقى الدلالة النسقية بحاجة إلى جملة ثقافية يكون قوامها التشكيل الثقافي المنتج للصيغ التعبيرية المختلفة.

3- الجملة الثقافية ⟵ المتولدة عن الفعل النسقي في المضمر الدلالي للوظيفة النسقية في اللغة.[25]

ح.المؤلف المزدوج

ألغى الغذامي في كتابه"**النقد الثقافي**" كل المقولات التي عرضها من قبل في كتابه "**الخطيئة والتكفير**"، ومن مقولاته التي ألغاها "لا وجود لشيء خارج النص وليس ثمة قراءة نهائية"، "الكلمة كم مطلق"، "كل ما هو خارجي عن اللغة فهو غير قابل للإدراك الإنساني"،"**موت المؤلف**".[26] الذي يهمنا منها مقولة"**موت المؤلف**" فلم يمت المؤلف، ولم يعد مؤلفًا واحدًا في النقد، بل أصبح مؤلفين.

توصل الغذامي في مشروعه الثقافي وبعد سياقه لخمسة العناصر بأن المؤلف مؤلفان: مؤلف فرد المعهود الذي ينسب إليه النص، ومؤلف آخر ذو كيان رمزي، إنه الثقافة التي تصوغ بأنساقها المهيمنة وعي المؤلف الفرد ولا وعيه على حد سواء، ومهما حاول الأول أن يعبر عما يريد، فإن أفكاره ومواقفه في أطر كبرى تعمل على صوغ منظوراته، ونوع القضايا التي يتطرق إليها، فالمؤلف الفرد نتاج المؤلف الثقافة، التي يمكن اعتبارها المؤلف الأشمل والأكبر حضورًا، والذي يتدخل باستمرار في تعديل ما يفكر به المؤلف الفرد وينتجه.[27]

إن الثقافة مؤلف مضمر ذو طبيعة نسقية تلقي بشباكها غير المنظورة حول الكاتب، فيقع في أسر مفاهيمها الكبرى التي تتسرب إليه كالمخدر البطيء، فترتب محمولات خطابه بما يوافق المضامين الأيديولوجية الخاصة بها.[28]

لقد قدم الغذامي مقترحات عملية تعبر عن التحول في وظيفة النقد، ودعا إلى استخدامها في النقد الثقافي، لكن الملاحظ في الجانب التطبيقي أنه لم يستخدم إلا عددًا محدودًا منها، لقد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وظف الجملة النوعية، وربطها بالنسق لكنه أهمل مكونات الجهاز الاصطلاحي الذي دعا إلى تحديثه، فظلت تلك المكونات أسيرة الجانب النظري، ولم تتخرط في معمعة التطبيق لتبرهن على وظيفتها الجديدة.[29]

2.نقلة في المفهوم (النسق)

احتل النسق أهمية خاصة، حيث يطرحه الغذامي كمفهوم مركزي، تتبني عليه قيم دلالية كثيرة. ويتحدد مفهومه كما يلي:

1- عبر وظيفته وليس عبر وجوده المجرد، فالوظيفة النسقية لا تحدث إلا في وضع محدد ومقيد، وهذا يكون حينما يتعارض نسقان من أنساق الخطاب؛ أحدهما ظاهر والآخر مضمر، ناقصًا وناسخًا للظاهر، ويكون ذلك في نص واحد، أو في ما حكم النص الواحد، ويشترط أن يكون جماليًا، وأن يكون جماهيريًا.

2- أن تقرأ النصوص قراءة ثقافية ليس باعتبارها تعبيرات أدبية وجمالية فحسب، إنما حادثة ثقافية تقتضي تشريحا يتجه إلى كشف الدلالات النسقية فيها، تلك الدلالات التي تعد موضوعًا للتحليل والكشف والتأويل.

3- فالدلالة النسقية ليست من صنع مؤلف فرد، لكنها مُنْكَتِبة في الخطاب بفعل سيطرة نموذج ثقافي شامل، يقوم بضخ محمولاته في ثنايا الخطاب.

4- ذو طبيعة سردية، وله حبكة متقنة، ولهذا فهو بارع في التخفي، لكنه بارع أيضًا في جذب الاهتمام، والسيطرة على الرغبات وبعثها وتنشيطها، فيُحدث انقسامًا بين الوعي الظاهر المنضبط والرغبات السردية الخفية، ويقوم إلى ازدواج مكشوف في السلوك والعلاقات والمواقف.

5- يتصف النسق بأنه تاريخي أزلي راسخ، وله الغلبة في تحييد حاجات الناس تحت أغطية جمالية وبلاغية، وهو في الوقت نفسه يوجه السلوك الاجتماعي العام، ويتدخل في أسلوب إشباع الحاجات الكامنة.

6- يشكل النسق جبروتًا رمزيًا يحرك الذهن الثقافي للأمة، ويقوم بتنميط ذائقتها، وطرائق تفكيرنا وميولها، وأحكامها.

7- أن يتوافر في النسق الذي هو موضوع النقد الثقافي تعارض قائم في الخطاب، مهما كانت الصفة النوعية لذلك.[30]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

3.نقلة في الوظيفة

بناء على ما سبق من نقلات المصطلحات وفي المفهوم، تصبح وظيفة النقد الثقافي مختلفة عن وظيفة النقد الأدبي، ويمكننا أن نحدد هذه الوظائف في النقاط التالية:

1- تأتي وظيفة النقد الثقافي من كونه نظرية في نقد المستهلك الثقافي. وتنصب لحظة الفعل النقدي هذه على الاستقبال الجماهيري والقبول القرائي لخطاب ما، مما يجعله مستهلكًا عموميًا. ويتركز دور النقد في بيان أن ما نستهلكه، أي نتلقاه قراءة لا يتناسق مع ما نتصوره عن أنفسنا وعن وظيفتنا في الوجود. ويحدد الغذامي أن هذا يحدث حينما يكون الجمالي مخالفًا للعقلي، والمقبول البلاغي يناقض المعقول الفكري، وينشأ تضارب بين الوجدان الخاص الذي يصنعه الوعي الذاتي فكريًا وعقليًا بحسب المكتسب الشخصي للذات مما هو تحت سيطرة المرء، الفرد بما أنه من فعله الذاتي الواعي، وهنا ينتهي الغذامي إلى تقرير مفاده أن الثقافة الشخصية الذاتية الواعية لا تملك القدرة على إلغاء مفعول النسق؛ لأنه مضمر من جهة، ولأنه متمكن ومنغرس منذ القديم، وكشفه يحتاج إلى جهد نقدي متواصل ومكثف.[31]

2- يتجه النقد الثقافي إلى المتن الثقافي والحيل النسقية التي تتوسل بها الثقافة لتعزيز قيمها الدلالية، ويلاحظ أن من أخطر الحيل النسقية ثلاث:

أ- تغييب العقل وتغليب البلاغة والشعر لمصلحة التفكير اللاعقلاني وتغليب الجانب الانفعالي العاطفي.

ب- إن مقولة "أعذب الشعر أكذبه" ومقولة "المبالغة" أحدثتا عزلاً بين اللغة والتفكير، أعطتا للجمالي قيمة تتعالى على العقلي والفكري.

ت- لقد تم، في ثقافتنا، غرس أنماط من القيم ظلت تمر غير منقودة، مما منحها ديمومة وهيمنة سحرية، وظل ينتجها حتى أولئك الموصفون بالتنوير والتحديث.

ث- النقد الثقافي فرع من فروع النقد النصوصي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول الألسنية، معني بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته، وأنماطه وصيغه.

3- إن النقد الثقافي معني بكشف لا الجمالي، كما هو شأن النقد الأدبي،وإنما همه كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي/ الجمالي. ولذا فإن المطلوب إيجاد نظريات في

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القبحيات، والمقصود بها هو كشف حركة الأنساق وفعلها المضاد للوعي وللحس النقدي.[32]

هذا ما جعل الغذامي يشبهه "بعلم العلل" في مصطلح الحديث، الذي يبحث في عيوب الخطاب، ويكشف عن سقطات في المتن أو في السند.[33]

4.نقلة في التطبيق

ينظر الغذامي إلى ثقافة شبه الجزيرة العربية وبشرها نظرة صفاء مطلق، إنها المنطقة النقية البكر غير المدنسة، لحقها الدنس حينما جرى انقلاب على مفهوم القبيلة ونظامها، وقع ذلك في العراق وبلاد الشام، حيث ظهرت أولى **المماليك** العربية: المناذرة والغساسنة، أحدثت هاتان المملكتان أول انتهاك في نظام القيم القبلية، لأنهما مزجتا بتلك القيم قيم المدينة؛ فكل منهما يرأسها حاكم مدني أو شبه مدني، كبديل عن شيخ العشيرة، حيث ظهرت المدينة الشمالية مع المناذرة والغساسنة، وظهر معها تقليد ثقافي تخلق فيه شخص الممدوح وشخص المداح.[34]

فقد تسرب، كما ذهب الغذامي: الحضور الأجنبي الفارسي والرومي إلينا، حضور حمل القيم والعادات الأجنبية، خلخلت الهجنة الشمالية صفاء القبيلة، وجرحت حسها الجماعي فحلت الفردية محل الجماعية، وتأسست منذ ذلك الوقت وظيفة شعرية/ سلوكية خاطئة للشعر والشعراء والمتلقين.[35]

أصبح الشعر عند الغذامي مدونة لا تقدر بثمن لأنها تضخ عبر الزمن منشطاتها النسقية في تضاعيف الشخصية العربية، وراح يقدم أدلة على ذلك من الكتاب والسنة، وأن الشعر صنع صور الاستبداد وإشاعته في حياتنا منها:

1- شخصية الشحاذ البليغ (الشاعر المداح).
2- شخصية المنافق المثقف (الشاعر المداح).
3- شخصية الطاغية (الأنا الفحولية).
4- شخصية الشرير المرعب الذي عداوته بئس المقتنى (الشاعر الهجاء).[36]

لقد اختار الغذامي هنا نسقًا ثقافيًا يرى أنه طبع ذاتنا العربية ثقافيًا وإنسانيًا على مدى عصور طويلة، ويطلق عليه نسق الشخصية الشعرية، هذا النسق الذي عمل ذاتنا سلبًا، ومازال، لأننا ننتج هذا النسق ونعيده، ونتحرك بحسب شروطه. وهذا السبب هو الذي جعلنا نسقط في حبائله، حتى الشعراء الذين ادعوا أنهم يأتون حاملين رايات الحداثة والتغيير **كأدونيس** و**نزار قباني**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فإنهم لا يختلفون إطلاقًا عن القدماء **كالمتنبي** و**أبي تمام**، وغيرهما، في وقوعهم الفاضح في الخدعة النسقية التي فرضتها الشخصية الشعرية على خطابنا الشعري والأدبي، وعلى مسلكنا الفكري والثقافي.(37)

النقد النسوي عند الغذامي

كانت للغذامي مقاربة عن المرأة منذ كتابه الأول "الخطيئة والتكفير"، إلى كتابه "الكتابة ضد الكتابة" مرورًا بكتابه "المرأة واللغة" وكتابه"ثقافة الوهم"، إلى "تأنيث القصيدة والقارئ المختلف"، وأخيرًا كتابه "الجهنية في لغة النساء وحكاياتهن".

رأى الغذامي أن الثقافة هي التي تقصي المرأة، وتجعل دورها هامشيًا في المجتمع، بل وتغرس تصورات في الذهن، تتحول مع مرور الوقت إلى معتقد، لا يمكن الحياد عنها، وبهذا تقمع شخصية المرأة، فتجعل معنى، لأن المعاني مطروحة في الطريق، ويعطى للرجل اللفظ، إلا أن المرأة كسرت طوق الذكورية، فسعت إلى تأنيث الذاكرة؛ لأنه ما لم تتأنث الذاكرة فإن اللغة ستظل رجلاً، لتعرف المرأة بعد محوًا وطمسًا آخرَ هو طمس اسمها، لأن اسمها يمثل علامة اجتماعية.

فالعلاقة بين المرأة واسمها علاقة عرفت إشكالاً، فالثقافة عملت على الدوام على ستر اسم المرأة، وجعل ذكره عارًا؛ لأن جسد المرأة واسمها يضاف إلى الذكور، ولا يضاف إلى نفسها ولا تضاف الذكورة إليها، فالمرأة زوج فلان، ولكن فلانًا هذا لا يعترف بكونه زوج فلانة، وهي أم فلان.

الخاتمة

في الختام، نستنتج أن الغذامي واحد من أشهر النقاد العرب، له آراء نقدية أحدثت ردود فعل متناقضة عبر الشارع الثقافي العربي، ما إن تقف على تجربته النقدية، إلا وتجد نفسك أمام مرحلتين، مرحلة بدأت مع بزوغ كتابه الأول"الخطيئة والتكفير"، الذي بلور فيه الكاتب منهجه الخاص، الذي هو خليط من المناهج – البنيوية، السيميولوجية، التفكيكية– وهو ما يسمى بالتشريحية، التي دعا فيها إلى البناء لا مجرد الهدم.

ثم يُعرف الغذامي بعد ذلك بانعطافة كبيرة كللها بكتب جديدة "المرأة واللغة" "ثقافة الوهم" و"تأنيث القصيدة"، ليختمها بكتابه "النقد الثقافي". ورغم أن الغذامي أعلن عن موت النقد الأدبي، إلا أن نقده الثقافي لم يأت من فراغ، بل استند إلى أدوات النقد الأدبي، ليحاول الكشف عما يختبئ داخل كل نص من عيوب، تلك العيوب التي كانت تمر دائمًا تحت غطاء الجمالي، ملقيا اللوم كله على الشعر أنه السبب وراء تشعرن الذات، ولكن أليس الشعر ديوان العرب، ومنه استقت العربية ثقافتها، وأخلاقها، ومقوماتها، ولغتها، وبلاغتها؟.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهوامش:

(1): عبد الله الغذامي: تشريح النص مقاربات تشريحية لنصوص شعرية معاصرة، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت 2006م، ص:20.

(2): عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية قراءة نقدية لنموذج معاصر، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص:7.

(3): محمد عزام: تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية دراسة في نقد النقد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2003م، ص:121.

(4): إبراهيم محمود خليل: النقد الأدبي من المحاكاة إلى التفكيك، دار المسيرة، عمان2003م، ص:222.

(5): عبد الله الغذامي: تشريح النص، ص:18 ، 180.

(6): عبد العزيز المقالح: نقوش مأربية دراسات في الإبداع والنقد الأدبي، ط1، المؤسسة الجامعية، بيروت 2004م، ص:99.

(7): حسين السماهيجي وآخرون، قراءة الأنوثة، عن كتاب الغذامي والممارسة النقدية الثقافية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2003،ص131.

(8): عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير، ص:113.

(9): سفر التكوين: الدارجة المغربية، ط1، 2008م، ج3، ص:12.

(10): عبد الله محمد الغذامي و عبد النبي اصطيف، نقد ثقافي أم نقد أدبي ، دط، دار الفكر، دمشق 2004م، ص ص 11، 12.

(11): المرجع نفسه، ص 69.

(12): عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت 2005م، ص ص 83، 84.

(13): حسين السماهيجي وآخرون، قراءة الأنوثة، عن كتاب الغذامي والممارسة النقدية الثقافية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2003، ص41.

(14): عبد الله الغذامي و عبد النبي اصطيف، نقد ثقافي أم نقد أدبي، ص 21

(15): عبد الله إبراهيم، النقد الثقافي مطارحات في النظرية والمنهج، عن كتاب عبد الله الغذامي والممارسة النقدية والثقافية، ص 44.

(16): عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، ص 66.

(17): خالد سليمان، من الخطيئة والتكفير إلى النقد الثقافي دراسة انتقائية، عن كتاب الغذامي الناقد قراءات في مشروع الغذامي النقدي، مؤسسة اليمامة الصحفية، كتاب الرياض، العدد 97-98 ديسمبر 2001م، ص 155.

(18): علي أحمد الديري، المجاز والإنسان- المجاز الكلي في النقد الثقافي أنموذجا، عن كتاب الغذامي والممارسة النقدية والثقافية، ص 236.

(19): خالد سليمان، من الخطيئة والتكفير إلى النقد الثقافي دراسة انتقائية، عن كتاب الغذامي الناقد، ص 156.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(20): عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، ص 71.

(21): عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير، ص ص 125، 126.

(22): المرجع نفسه، ص ص 125، 126.

(23): عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، ص 72.

(24): حامد أبو أحمد، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية، عن كتاب الغذامي الناقد، ص 90.

(25): عبد الله إبراهيم، النقد الثقافي ، عن كتاب الغذامي والممارسة النقدية والثقافية، ص 45.

(26): خالد سليمان، من الخطيئة والتكفير إلى النقد الثقافي، عن كتاب الغذامي الناقد، ص 158.

(27): معجب الزهراني، النقد الثقافي نظرية جديدة أم إنجاز في سياق مشروع متجدد، عن كتاب الغذامي والممارسة النقديو والثقافية، ص 145.

(28): المرجع السابق.

(29): عبد الله إبراهيم، النقد الثقافي مطارحات في النظرة والمنهج، عن كتاب الغذامي والممارسة النقدية والثقافية، ص 51.

(30): المرجع نفس، ص 46.

(31): منذر عياشي، النقد الثقافي بين النظرية والمنهج، عن كتاب الغذامي والممارسة النقدية والثقافية، ص 96.

(32): المرجع نفسه.

(33): حاتم الصكر، عبد الله الغذامي الشبيه المختلف، عن كتاب الغذامي الناقد، ص84.

(34): عبد الله إبراهيم، النقد الثقافي مطارحات في النظرية والمنهج، عن كتاب الغذامي والممارسة النقدية والثقافية، ص48.

(35): المرجع نفسه.

(36): عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، ص99.

(37): خالد سليمان، من الخطيئة و التكفير إلى النقد الثقافي، عن كتاب العذامي الناقد، ص162.

قائمة المصادر والمراجع

1- إبراهيم محمود خليل: النقد الأدبي من المحاكاة إلى التفكيك، دار المسيرة، عمان2003م.

2- حسين السماهيجي وآخرون، قراءة الأنوثة، عن كتاب الغذامي والممارسة النقدية الثقافية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2003.

3- خالد سليمان، من الخطيئة والتكفير إلى النقد الثقافي دراسة انتقائية، عن كتاب الغذامي الناقد قراءات في مشروع الغذامي النقدي، مؤسسة اليمامة الصحفية، كتاب الرياض، العدد 97-98 ديسمبر 2001م.

4- سفر التكوين: الدارجة المغربية، ط1، 2008م، ج3.

5- عبد العزيز المقالح: نقوش مأربية دراسات في الإبداع والنقد الأدبي، ط1، المؤسسة الجامعية، بيروت 2004م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

6- عبد الله الغذامي: تشريح النص مقاربات تشريحية لنصوص شعرية معاصرة، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت 2006م.

7- عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية قراة نقدية لنموذج معاصر، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

8- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت 2005م..

9- عبد الله محمد الغذامي و عبد النبي اصطيف، نقد ثقافي أم نقد أدبي ، دط، دار الفكر، دمشق 2004م.

محمد عزام: تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية دراسة في نقد النقد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2003م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com